عربي جوبا:
الهجنة التائهة بين الهوية والانتماء

أ. اتيم سايمون مبيور
باحث في الشؤون الإفريقية – جنوب السودان

تزخر جنوب السودان بعددٍ كبير من اللغات واللهجات، والتي تُعبّر عن التنوع الكبير الذي تحظى به الدولة الفتية حديثة الاستقلال من الناحية الثقافية والبيئية، وتشير الخريطة اللغوية لجنوب السودان إلى وجود قرابة ٦٨ لغة يتحدث بها مواطنوها بوصفها لغات (محلية/ أصلية/ وطنية)، هذا بالإضافة إلى اللغات الأجنبية الأخرى المتداولة والمعروفة.

وقد ساوى دستور البلاد بين جميع تلك اللغات التي أطلق عليها وصف (الأصلية) Indigenous، وعاملها كلغات وطنية يجب أن يتم ترقيتها وتطويرها، لكنه حدد اللغة الإنجليزية لغة رسمية للعمل في دواوين الحكومة بجمهورية جنوب السودان، وأن تكون لغة معتمدة كذلك للتدريس والتوجيه في جميع المراحل التعليمية بالبلاد.

وقد حاولت السلطات الرسمية في مراحل لاحقة إدراج اللغة العربية (الفصحى) بوصفها لغة دراسة في المراحل الأولية كواحدة من اللغات الأجنبية التي يجب أن يتعلمها التلاميذ، إلى جانب اللغة السواحيلية باعتبارها واحدة من الشروط الإجرائية المطلوبة لاندماج جنوب السودان في مجتمع دول شرق إفريقيا الذي انضم إليه مؤخراً.

وبرزت مسألة اللغة في جنوب السودان بشكل واضح خلال النقاشات المتعلقة بالدستور الانتقالي، في إطار التحضيرات الجارية لإعلان الاستقلال الرسمي للبلاد في العام ٢٠١١م، وقد تركز الجدل بشكل رئيس حول اللغة الرسمية التي يجب اعتمادها بشكل رسمي، فقد كانت هناك أصوات تطالب باعتماد اللغتين الإنجليزية والعربية بوصفها لغات رسمية للتخاطب والتدريس والمكاتبات الديوانية، إلا أن تلك المقترحات لم تحظ بالقبول في لحظات الفوران الوطني تلك، حيث تم ربطها بسؤال الهوية والانتماء القومي، في محاولة لإلغاء تاريخ التفاعلات والمتغيرات التي شهدتها جنوب السودان منذ بداية حملات اكتشاف منابع النيل التي ابتدرها القبطان سليم (١٨٣٩-١٨٤٢م)، حيث جاء في تقاريره المنشورة أن اللغة العربية لم تكن معروفة في الجنوب، عليه بدأت صلة الجنوب باللغة العربية مع الحملات الثلاثة لاكتشاف النيل ، مع أن تلك البعثات عادت أدراجها للخرطوم دون الوصول للمنابع الأصلية، إلا أنها تمكنت لأول مرّة في التاريخ المعروف من اختراق منطقة السدود وكشف حقيقة أرضها، كما أنها تركت آثارها في المنطقة، حيث خلفت بعض العادات والكلمات.

وخلال فترة الحكم الثنائي الإنجليزي المصري؛ برزت بعض السياسات التي هدفت لتشكيل الواقع الثقافي والاجتماعي في السودان، وخاصة من حيث التأثيرات اللغوية والدينية المتبادلة فيما عُرف بسياسة المناطق المقفولة ١٩٢٢م، وصولاً إلى عهد الحكومات الوطنية المتعاقبة بعد استقلال السودان في يناير ١٩٥٦م، وهو تاريخ من المقاومة والممانعة ومحاولة رسم سياسات لغوية ودينية هدفت لبناء مجتمع (متخيل) في السودان وجنوب السودان كإقليم قائم بذاته، إلا أن جميع تلك التدخلات والمحاولات الرسمية مُنيت بالفشل، وبقيت نماذج التفاعل المتراكمة لتحدد أنماط اللغة والثقافة في جنوب السودان كدولة حديثة الاستقلال.

هذا، وقد حاولت السياسات اللغوية والوثائق الرسمية للسلطة المركزية أن تتجاوز «عربي جوبا» أو «لهجة جوبا العربية»، والتي تُعتبر واحدة من اللغات المحلية الفاقدة للسند العرقي- لعدم نسبتها لأي واحدة من المجموعات الإثنية في جنوب السودان، والتي تشكلت في سياقات التفاعل والتداخل اللغوي بين المجتمع المحلي وجماعات عربية مختلفة الأصول وفدت إلى المنطقة الاستوائية في البداية.

وتشير عدد من الدراسات المتخصصة في علم اللغة الاجتماعي إلى أن «عربي جوبا» تمثل وسيط التخاطب المشترك الحقيقي lingua franca في جنوب السودان[1]، والذي يتفوق على الإنجليزية من حيث إلمام الناس بها، وانتشارها الذي وصل إلى أعتاب مرحلة تحولها إلى اللغة الأمّ لدى عدد من الأجيال المدنية الجديدة التي بدأت في فقدان لغاتها المحلية، فهي لغة الحياة اليومية في العاصمة جوبا، وتستخدمها الإذاعات في أغلب برامجها، كما أنها باتت لغة الغناء المنتشر في العديد من أجزاء البلاد، وأصبحت لها صفحات متخصصة على مواقع التواصل الاجتماعي والشبكة العنكبوتية، بالإضافة إلى اجتهادات اللغويين في دراسة نظام الأصوات والقواعد الخاصة بعربي جوبا، والتي وصلت إلى مرحلة وضع القواميس التي تفسّر كلماتها ومعانيها بشكلٍ مستمر، مما

(١) Stefano Manfredi, M. T. (2015). LANGUAGE USE VS.LANGUAGE POLICY:SOUTH SUDAN AND JUBA ARABIC IN THE POST-INDEPENDENCE ERA. Turin: University de Turin , P.798.

يمهد الطريق أمامها لأن تصبح واحدة من اللغات المعتمدة رسمياً في المستقبل القريب، وبالتحديد على مستوى العاصمة جوبا، حيث تقترح العديد من النقاشات المستمرة في عدد من المنابر اعتماد اسم «لغة جوبا» بديلاً لاسم «عربي جوبا» أو «لهجة جوبا العربية».

اللغة الهجينة والمولدة:

يُطلق مصطلح «اللغة الهجينة» (الكريول) على اللغات تبعاً لمبدأ التمثيل الاجتماعي، ويتم إنتاج تلك اللغات عن طريق الاحتكاك بين لغة أوروبية وناطقين أجانب يحاولون امتلاكها بطريقة غير منهجية، وتبعاً لهذا التطور يفسح هذا المفهوم المجال لنوع من القصة الأسطورية[1].

ويضع علماء اجتماع اللغة عدة مراحل لعملية التهجين اللغوي تلك، تبدأ بمرحلة أولى، حيث توجد مجموعة من الناطقين الأجانب في حالة لغوية قائمة بذاتها، تحاول أن تتواصل في لغتها، وإذا قُدّر لهذا التبادل أن يكون منتظماً، فقد تنشأ لغة ذات توصيف مختزل، ومفردات ضئيلة، وصرف ونحو مبتسرين، وتسمى تلك اللغة «البيدجن» أو «السابير».

وتتشكل المرحلة الثانية حينما يتوفر لهذا الاحتكاك أن يتكثف ويتعزز، فتتجه لغة البيدجن إلى مزيد من التعقيد، وفي الحالات الأولى تستخدم نفس الأشكال مع المجموعة اللغوية الجديدة الأولى والثانية، وهنا تتحول البيدجن إلى لغة ناقلة للمعارف، ويخصص منطق هذه المرحلة للتنوع والابتكار غير الثابت كما ورد في المرحلة الأولى. هذا، وتتكرر المرحلة الثانية من الانتقال اللغوي نحو الهجنة حينما تتوقف المجموعة الأولى ذات طابع اللغة الناقلة عن الانتشار، وتدمج المجموعة الأولى، حيث يُفسَح المجال أمام نشوء تنوعات جديدة.

وفي المرحلة الثالثة؛ تُستبدل المجموعة اللغوية الأولى في حالتها الثانية إلى اللغة الأم التابعة لمجموعة صغيرة، دون أن تصبح متعددة الوظائف، وترمز المرحلة الثالثة إلى اتخاذ طابع التهجين اللغوي وإلى اكتساب اللغة الأمّ في الجماعة.

ويُطلق «البيدجن» غالباً على المرحلة الثانية من الانتقال، و«الكريول» على المرحلة الرابعة .

من المهم الإشارة إلى اعتماد تعريف اللغات الهجينة على عوامل اجتماعية، فلا تنشأ أي لغة اتصال أو لغة هجينة دون عوامل اجتماعية تسهم في نشأتها، فتعريف اللغات الهجينة يتضمن عوامل اجتماعية، ومنها: أنها ليست لغة أمّ لأحد في المجتمع اللغوي الذي تُستخدَم فيه، كما تتضمن في نشأتها مواقف اتصال اجتماعي مثل التجارة، كما يتضمن التعريف كذلك أنها تنشأ في ظل عدم تكافؤ القوى، وبسبب المسافات الاجتماعية بين متحدثيها وبين أصحاب المجتمعات الأصليين الذين نشأت بينهم اللغة.

وقد عرّف هدسون Hudson اللغة الهجينة بأنها: لغة بدون متحدثين أصليين، وبأنها ليست لغة أمّ لأحد، بل هي لغة اتصال نشأت نتيجة للحاجة للتواصل بين أصحاب لغات متعددة، فكان عليهم إما أن يتواصلوا بلغة قائمة، وإما أن يخترعوا لغة ميسرة للتفاهم[2].

أما «اللغة المولدة» الكريول Creole فهي اللغة الهجينة عندما تصبح اللغة الأمّ لجيل جديد من متحدثي اللغة الهجينة، بحيث تصبح صفة اجتماعية لغوية لهذه الفئة من متحدثيها، وقد عرّف كريستال اللغة المولدة بأنها: «مصطلح يُستخدم في اللغويات الاجتماعية ليشير إلى اللغة الهجينة التي أصبحت لغة أمّ لمجتمع كلامي (جماعات كريولية)»، وظهرت اللغات الهجينة في أماكن مختلفة في العالم، حيث التقاء متحدثي لغات مختلفة ليس بينهم لغة مشتركة، ويغلب استخدام اللغات الهجينة والمولدة في مناطق حزام خط الاستواء، بسبب قربها من المحيطات، وصلتها بالتنقل عبر البحار لأغراض التجارة، وخصوصاً تجارة الرقيق والتقاء متحدثي لغات مختلفة ليس بينهم لغة مشتركة، ويقدّر واردغ عدد مستخدمي اللغات الهجينة التي ظهرت في العالم بصفة عامة بين

(١) اشار، بيار، (١٩٩٦)، سوسيولوجيا اللغة، بيروت: منشورات عويدات ، ص ٥٧.

(٢) حميد، إبراهيم، عبدالعزيز، د.ت، اللغات الهجينة والمولدة، دراسة لغوية اجتماعية، الرياض- جامعة الإمام محمد بن سعود ، ص٩٧.

مليونين إلى اثني عشر مليون متحدث.

وقد تم تصنيف اللغات الهجينة إلى ست مجموعات، وهي ترجع إلى عصور توسع الدول المستعمرة، وسيطرتها على كثير من البلدان، وهي:

- لغات ذات مصدر إنجليزي.
- لغات ذات مصدر برتغالي.
- لغات ذات مصدر إسباني.
- لغات ذات مصدر هولندي.
- لغات ذات مصدر فرنسي.
- ولغات ذات مصادر إفريقية -آسيوية، وأسترالية - آسيوية، وأمريكية -هندية، وتنتشر أكثر في شرق ووسط إفريقيا، وتبلغ ١٨ لغة، ومنها: اللغات الهجينة والمولدة المستخدمة في جوبا Juba pidgin Arabic، والعربية النوبية المولدة Nubi Creole Arabic [١].

أما مصطلح «لغة التواصل المشتركة» Lingua Franca؛ فيُقصد به تلك الأشكال اللغوية التي تنشأ عن تقارب جغرافي أو تقارب اجتماعي ويكون فيه تأثير متبادل بين لغات مختلفة، واللغات الهجينة والمولدة هي إحدى لغات الاتصال، بل إن لغات الاتصال يُقصد بها اللغات الهجينة، وهناك ثلاثة جوانب مهمة في تعريف لغات الاتصال المشتركة، تتمثل في وجود وضع اجتماعي ثقافي يسمح بالتواصل، وجود لغتين أو أكثر، ووجود متحدثين لتلك اللغات، وقد عرّفتها اليونسكو بأنها: «لغة تُستخدم باعتياد من قِبَل متحدثين تختلف لغاتهم الأمّ، من أجل تسهيل التواصل فيما بينهم».

عربي جوبا.. خلفية تاريخية:

بدأ احتكاك المجموعات العربية بجنوب السودان في بدايات القرن الثاني عشر الميلادي، ووصل ذروته في القرن الخامس عشر، ومع ظهور الممالك الإسلامية في السودان، مثل سلطنة الفونج أو السلطنة الزرقاء، وسلطنات دارفور والتي حلت محل الممالك النوبية المسيحية القديمة، أصبحت اللغة العربية هي اللغة الرسمية ولغة التواصل المشتركة في تلك المناطق.

(١) المرجع السابق ، ص١١٠.

وفي العام ١٨٢١م أرسل الخديوي محمد علي باشا حاكم مصر تجريدة عسكرية لملاحقة المماليك الذين فرّوا إلى بلاد النوبة، وبعدها أعلن سيطرته على جزء كبير مما أصبح يُعرف اليوم باسم «السودان الحديث»[٢] ، ولذلك يرى كثيرٌ من الباحثين أن تلك الحقبة (العهد التركي المصري) يمكن أن تُسمى بالفترة التي شهدت الدخول المبكر للغة العربية لجنوب السودان، وقد تم ذلك- حسب بول دينق- على يد ثلاثة عناصر أساسية، هي: الجلابة، والفقراء، والجنود المصريين.

ويُقصد بالجلابة: التجار الأوروبيون والمصريون والسوريون والتونسيون والسودانيون الشماليون، الذين وفدوا إلى الجنوب، وقُدّر عددهم آنذاك بحوالي ٥٠٠٠ فرد على الأقل في بلاد الفراتيت في بحر الغزال وحدها، وقد نشط هؤلاء في التجارة المشروعة «العاج، وريش النعام»، كما نشطوا بصورة أكبر في تجارة الرقيق الممنوعة أخلاقياً وقانونياً، وقد أسهم هؤلاء التجار في نشر اللغة العربية في غمرة انهماكهم في تحقيق الأغراض التجارية باعتبارها وسيلة تخاطب تفيد في التواصل بينهم والمجموعات المحلية.

أما الفقراء: فهم مجموعة من الدعاة والشيوخ الذين وفدوا إلى الجنوب لنشر الرسالة الإسلامية وتعليم مبادئ القراءة والكتابة العربية، وهؤلاء أغلبيتهم من إقليم دارفور.

أما المجموعة الثالثة التي ساهمت في نشر العربية بجنوب السودان: فهم الجنود المتمثلون في عناصر الجيش التركي المصري إلى جانب الجنود المنحدرين من مناطق شمال السودان، تحديداً الدناقلة والشايقية والجعليين وبعض العناصر النوبية، وكان هؤلاء يستخدمون العربية كلغة تواصل شفهي بينهم وبين الجماعات الجنوبية المحلية[٣] .

وترى بعض الدراسات اللغوية إلى أن عربية جوبا المعاصرة انحدرت أساساً من اللهجة العربية التي كان

(٢) Petrollino, S. M. (2013). Juba Arabic https:// www.researchgate.net/publication/275830344

(٣) دينق، بول، (٢٠٠٥)، لهجة جوبا العربية، الخرطوم: الدار السودانية للكتب ، ص٢٣.

يســـتخدمها الجنود من المصريين والأتراك، لذلك عُرفت في البدايات باســـم «عربية البمباشي» في إشارة إلى كلمة «أُمباشي» التركية، والتي تعني القائد العسكري أو الضابط العثماني الرفيع، وفيما بعد صارت تُعرف بـ«عربية منقلا» نسبةً إلى معسكر الجيش المصري التركي الذي كان يوجد في مدينة «منقلا» بالقرب من مدينة جوبا الحالية.

كما تعود نشـــأة «عربي جوبا» أيضاً- بنظر الكثير من الباحثين- إلى قيام معســـكرات الجيش والتجار وانتشـــار تجارة الرقيق بصورة كبيرة في الفترة ما بين ١٨٥٤م وحتى ١٨٨٩م، ممـــا أدى إلى وقوع اضطرابـــات اجتماعية كبيرة أدت إلـــى ظهور اللهجة العربية فـــي الإقليم الذي لم يكن ســـكانه يتحدثون العربية، ففي تلك المعسكرات كان يوجد خليط من النـــاس والأعراق والجماعات اللغوية، من بينهم الجماعات التي تتحـــدث العربية والذين يعملون مترجمين (يُعرفون أيضـــاً بالتراجمة)، وهم مـــن الوطنيين (أي من ســـكان المناطق المختلفة بالمنطقة الاستوائية)، ويُسمى المسلح منهم «بازنقر»، والصبي التابع حامل البنادق باسم «فرخ»، وقد تحول بعضهم بعد التدريب إلى جنود نظاميين في الجيش الحكومي، إلـــى جانب الجنود الأرقاء والأرقاء أنفســـهم الذين يتم اصطيادهم من المجتمعات المحلية، مثل المونـدو، لوغبارا، الدينكا، الشلك، الباري... إلخ.

وفـــي إطار حملات الحكومـــة لمحاربة تجارة الرقيق تحولت معسكرات التجار إلى مقرات للجيش، بينما تحول الأشخاص الذين كانوا يعملون في «الزريبة» إلى جنود في الجيش الحكومي، وخلال تلك الفترة بدأ السكان المحليون من الجنوبيين، والأرقاء الســـابقون، يلتحقون بمعســـكرات الجيش الحكومي، وفي تلك البيئة والظروف بدأت تتشكل لهجة عربية جديدة[١]. دينق، بينما ترى بعض الدراســـات أن أسباب ظهور تلك اللهجة العربية الهجينة تظل مجهولةً حتى الآن[٢]، وتشير المصادر التاريخية إلى أن لغة «عربي جوبا» استقرت في المنطقة خلال فترة زمنية قصيرة تُقدّر بحوالي الـ٤٥ عاماً (١٨٥٤-١٨٩٩م)، أي قبل انفصالها عن لغة «الكينوبي» المنتشرة في إقليم شرق إفريقيا، وتحديداً في كينيا ويوغندا.

عليه؛ فإن فترة الإدارة التركية المصرية للسودان، والتي مثلت أول ارتباط إداري بين الشـــمال والمناطق الجنوبية، قـــد فتحت المنطقة أمام التأثيرات الخارجية، حيث توافد التجار من الجلابة، والمكتشـــفين المغامرين والمبشرين، وقـــد أدى ذلك إلى إدخـــال اللغة العربيـــة الدارجة كأداة للتواصل بين السكان المحليين ومتحدثي العربية الوافدين، وقد اســـتُخدمت العربية في جميع الأنشطة المذكورة في التخاطب بين المراكـــز الإدارية والمحطات التجارية، كما عمد بعض التجار للاســـتيطان وسط المجتمعات المحلية والتزاوج معهم، وقد استخدم الأهالي العربية كلغة تخاطب راجحة بثقلها المادي، وقد تركت اللغات المحلية بالضرورة آثارها الصوتية والدلالية على اللهجة العربية المكتسبة[٣] «ولا ريـــب أن التدفق الكبير لمتحدثـــي اللغة العربية في منطقة الاســـتوائية عامة، وتمركزهم في غندكرو خاصة، وتفاعلهم مع قبيلة الباري، قد أسهم في بذر البذرة الأولى لعربية جوبا الدارجة التي نلحظها اليوم»[٤] .

عربي جوبا.. السمات والخصائص:

تحمل (عربـــي جوبا) جملة مـــن الخصائص اللغوية والاجتماعية المتفردة باعتبارها لغة خِلاسِـــيّة[٥] تشكلت في ظروف تاريخية لها خصوصيتها، كلغة جديدة التحمت فيها البنية التركيبية (النحـــو والصرف والنظام الصوتي) للغات المجموعـــات المهيمَن عليها، مع الموارد المعجمية (المفردات) للغة المجموعة المهيمنة، خالقةً راموزاً لغوياً هجيناً ثم خِلاسِـــياً تنامى على مَرّ الزمن، وتولد، وامتدت مجالات استخدامه.

ويرى عشـــاري أحمد محمود خليل: «أن الخصوصية

(١) المرجع السابق ، ص٣٨ .

(٢) Miller, C. (2006). Juba Arabic. University de provence https://www.academia.edu/5502218/Juba_Arabic

(٣) دينق ، مرجع سابق ، ٢٥.

(٤) المرجع السابق ص ٢٨.

(٥) لغة خِلاسِيّة: أي ذات أصول متعددة (هجينة). قراءات إفريقية.

الجوهريــة للغات الخلاســية تتخلق متســاوقة وبصفة حتمية مع الخصوصية التاريخية للتشــكيلة الاجتماعية-الاقتصاديــة التي تتولد فيها، وهي خصوصية اتصلت، في كل حالات اللغات الهجين والخلاســية، بهيمنة أقلية ذات منعة اقتصادية أو حربية أو تجارية أو سياسية، على أغلبية مكونة من مجموعات عرقية متعددة، تتحدث لغات مختلفة، وكانت عندئذ تعيش في استقلال نسبي عن بعضها البعض الآخر وفق أنماط إنتاج بدائية أو شبه بدائية»[١].

هذا، وقد أشار كلٌّ من الأمين أبو منقة ويوسف الخليفة أبوبكر، في دراســتهما للأوضاع اللغوية في السودان، إلى أن (عربي جوبا) يمكن أن تُصنف ضمن النمط الأول في تقسيم اللغــات العربية التي يتحدث بها الناطقون بلغات أخرى، وقد وصفوها بأنهــا: اللغة العربية المتأثرة بخصائص اللغة الأمّ، فخضعت لنظــام اللغة الأمّ في نظامهــا الصوتي والصرفي والنحوي، فمفرداتها العربية تفقد أكثر من عشــرة أصوات عربية هي أصوات الإطبــاق، وأصوات الحلق (ص، ض، ط، ظ، ح، خ، ع، غ، ق)، وأصــوات أخرى، وفي بنية كلماتها تفقد الميــزان الصرفي، والتأنيث والتذكيــر، والتعريف والتنكير، وتفقــد عدداً مــن الضمائر والجموع، ولم يبــق في كلماتها سوى ملامح الكلمة العربية التي تحتاج من السامع إلى تمعن لإدراك عربيتهــا، أما تراكيبها فقد تحولت إلى تراكيب اللغة الأمّ. هذا النمط هو الذي نطلق عليه «عربية جوبا»، ويسميها علماء اللسانيات «اللغة الهجين» Pidgin Language.

وأبانت عديد من الدراسات اللغوية أن النظام الصوتي المســتخدم في (عربــي جوبا) غير ثابت وغير مســتقر بدرجة كبيرة، لكنهــا أوردت ملاحظتين غاية في الأهمية، الأولــى أن بعض الأصوات وطريقــة النطق تقترب بدرجة كبيرة من النظام الصوتي لـ«مجموعة الباري» المقيمة في العاصمة جوبا وامتداداتها، بينما تذهب الملاحظة الثانية إلى أن (عربي جوبا) تحتفظ أيضاً ببعض النماذج الصوتية المستخدمة في العربية الفصحى[٢]، ويعود ذلك في تقدير كثير من الباحثين إلى محدودية الكلمات التي يتم التعويض عنها بكلمات من لغات الناطقين الأصليين، لذلك تخلصت «عربي جوبا» من كثير من قواعد العربية وصرفها[٣].

يقول بول دينق، في دراســة له بعنــوان (لهجة جوبا العربية) في توصيف الخصائص الدلالية لـ(عربي جوبا): «اشــتملت اللهجة المدروســة على جملة مــن المفردات الدخيلة التي كانت ســبباً في نموهــا المضطرد، وضماناً لاستمرارها، ووســيلة فعالة للاتصال والتعبير عن كوامن متحدثيهــا، وتحقيقاً لأغراضهم فــي الحياة، فقد أخذت اللهجة من لغة الباري بقــدر ليس بالقليل، نظراً لأنها لغة البيئة التي نمت ولا زالت تعيش فيها اللهجة».

ويخلص بول دينق إلى أن لغة الباري ستظل تخلع بعض عاداتها اللغوية على اللهجة المدروســة لفترات طويلة في المســتقبل، مبيناً أن هناك لغات أخــرى دفعت بقدرٍ من ذخيرتها اللغوية لتغذيــة اللهجة، ومنها التركية والكنغولية واليوغنديــة والأوروبية، كما لاحظ في دراســته أن لهجة (عربي جوبا) قد زادت من بعض المفردات العربية [٤].

عربي جوبا.. جدل الانتماء:

علــى الرغم من التعدد والزخــم اللغوي الكبير الذي تتمتع به دولة جنوب الســودان حديثة الاستقلال؛ فإنه لا توجد لغة تواصل مشــتركة تجمع بين كافة مكونات البلاد من تلــك اللغات (المحلية/ الأصليــة/ الوطنية)، أو حتى الأجنبية المعترف بها في الوثائق الرســمية للدولة، وهي ســمة توفرت لعربي جوبــا دون غيرهــا لتصبح هي لغة التواصل المشتركة الحقيقية واللغة الأكثر انتشاراً من حيث عــدد المتحدثين بها بصفة يومية على مســتوى العاصمة جوبا وبعض المناطق، وهو ما جعلها تنتقل من طور اللهجة الهجيــن إلى اللهجة المولدة، مثلما أنهــا باتت أكثر تهيئاً للتحــول إلى لغة أمّ للمواطنين الذين نشــؤوا في المراكز الحضريــة الجديدة، وبذلك يمكــن اعتبار أن عربي جوبا باتت تؤدي دور عامــل التوحيد اللغوي في ظل عدم وجود أي لغــة أخرى تجمع بين غالبية المجموعات اللغوية، وفي

(١) محمود، عشاري، أحمد، جدلية الوحدة والتشتت في قضايا اللغة والوحدة الوطنية في السودان، (١٩٨٨، ص١٤٠).

(٢) مرجع سابق. Miller

(٣) حميد، مرجع سابق ص ١١٦.

(٤) دينق، مرجع سابق ص١٦٦.

نفس التوقيت أصبحت تمثل لغة العاصمة الأولى.

أصبحت «عربي جوبا» اللغة الأكثر ذيوعاً على مستوى العاصمة جوبا، والأكثر استخداماً في السياقات الشفهية الشعبية مثل المحاكم الأهلية، إلى جانب توظيفها في البرامج والنشرات الإخبارية على مستوى الإذاعات المحلية، وفي المحادثات والحوارات اليومية في الشارع وبين الجيران، بالإضافة لاستخداماتها في مجالات الغناء والمسرح والخطابات السياسية الشعبية والجماهيرية، وقد تمت كتابة «عربي جوبا» بالحرف اللاتيني من قِبَل بعض الإرساليات الكنسية المسيحية[1]، مثلما كانت هناك محاولات مماثلة لكتابتها بالحرف العربي.

وفي دراسة ميدانية حديثة لـ(استيفانو مانفيردي، وماورو توسكو) عن «عربي جوبا» باعتبارها لغة محلية تحظى بتقدير أقل، تقصَّى الباحثان وضعية انتشارها اللغوي بعد انفصال دولة جنوب السودان في العام ٢٠١٣م، واتجاهات المتحدثين بها ونظرتهم لها، مقارنةً بتاريخها السياسي والاجتماعي، حيث توصلا إلى أن هناك نظرة إيجابية لعربي جوبا من قبل المتحدثين بها داخل العاصمة (مجتمع الدراسة)، وخلصت الدراسة أيضاً الى أن المتحدثين ينظرون لاستخدامهم لعربي جوبا بصورة إيجابية، ويعتبرونها لغتهم الأولى، كما يجادلون بأنها الوسيط اللغوي الوحيد الذي يساعد في الاتصال البين مجتمعي والمتجاوز للقبلية في جنوب السودان[2].

وعلى النقيض من ذلك؛ يرى الخطاب الحكومي الرسمي أن «عربي جوبا» واحدة من تفرعات اللغة العربية، لذلك لا يمكن اعتبارها بأي حال من الأحوال «لغة أصلية» تُنسب لجنوب السودان، وقد نص الدستور على استخدام اللغات الأصلية في مراحل التعليم المبكرة كجزء من السياسة التعليمية الرسمية للحكومة، ويقصد باللغات الأصلية (الدينكا، النوير، الشلك، باري، زاندي، لوتوكا، والمورو)، باعتبارها من أكثر اللغات المتداولة في جنوب السودان بتقدير عدد متحدثيها، لكنها أيضاً لغات محصورة على جماعات إثنية محددة، ولا تستطيع أن تؤدي أي دور في عملية الاتصال المتداخل بين الجماعات اللغوية المتباينة، وتعد تلك واحدة من الظلال الأيديولوجية التي ألقاها مؤتمر الرجاف في العام ١٩٢٨م، على مسألة اللغات والسياسات التعليمية في السودان بشقّيه الشمالي والجنوبي، فتصنيف التكوينات اللغوية وتعريفها وفق مصطلحات جديدة على نهج اللغات الأصلية والمحلية، كان نتاجاً للسياسة البريطانية، التي تبنت نظام الحكم غير المباشر في ثلاثينيات القرن العشرين، حيث ارتبطت اللغة بالجماعات الإثنية والتزمت بحدودها، وهنا تم إبعاد اللغات الأجنبية من التصنيف كلغات أصلية، وفي هذه الحالة تكون «عربي جوبا» هي الضحية الأولى لتلك السياسات بغض النظر عن استخداماتها المتعددة، على الرغم من أنها أكثر تداولاً ومعرفة؛ بعكس اللغة الإنجليزية التي تُستخدم حالياً على نطاق محدود[3].

في الجانب المتعلق باستخدامات اللغة في مدينة جوبا (عاصمة دولة جنوب السودان)؛ عمدت دراسة (استيفانو مانفيردي، وماورو توسكو) إلى تقييم استخدامات عربي جوبا وبقية اللغات الأصلية الأخرى، في أربعة سياقات اجتماعية مختلفة، وهي (المنزل، مع الجيران، في الأسواق العامة، وفي المكاتب)، وبموجب نتائج الاستبيان المستخدم؛ فقد توصلت الدراسة إلى أن عربي جوبا تتشارك مجال الاستخدام في المنزل مع اللغات الأخرى لدى مجتمع البحث، كما أنها تمثل وسيط التخاطب الأفضل مع الجيران، وبدرجة أقل في الأسواق العامة.

وفي الجزء الثاني من الدراسة، والذي أفرده الباحثان للخطاب الرسمي ونظرته لمسألة اللغات في جنوب السودان، من خلال مقابلات تم إجراؤها مع مسؤولين في وزارة التعليم والعلوم والتكنولوجيا، لمعرفة البعد الأيديولوجي الذي يقف وراء النظام المتبع في تحديد الوضع اللغوي بالبلاد، وانعكاساته على الاتجاهات اللغوية

(١) مرجع سابق. Miller

(٢) Tosco, S. M. (2019). Juba Arabic Aless Indigenous language of south sudan. Italy: University of Torino p.212,

(٣) المرجع السابق ص ٢١٦.

واستخدامات اللغة في جنوب السودان، اتضح أن الخطاب الحكومي الرسمي ينظر إلى تكوينات اللغة الأصلية من خلال ربطها بوجود مجتمعات أصلية تتحدث بها، وهو المعيار الذي يستبعد «عربي جوبا» من الاعتبار كلغة محلية وفقاً لأقل التقديرات، برغم اعتراف المسؤولين بأنها تمثل «لغة التخاطب المشتركة» الوحيدة بين كل مكونات جنوب السودان، وبالتحديد داخل العاصمة جوبا والمناطق القريبة منها، بجانب استخدامها في الكنائس التي حاولت أن تكتبها بالأحرف اللاتينية.

إن الموقف الرسمي تجاه عربي جوبا يأتي كردة فعل على سياسات التعريب التي فرضتها الأنظمة الحكومية المتعاقبة في السودان الموحد على جميع المراحل الدراسية في جنوب السودان، وقد ترتب على ذلك التعامل معها بوصفها إحدى تفريعات اللغة العربية، لذلك فإنها- أي عربي جوبا- لا تندرج تحت اللغات الأصلية على حسب التعريف الذي يربطها بوجود «ثقل إثني»، مع الإقرار بكونها الرابط اللغوي الرئيسي بين جميع مكونات جنوب السودان.

في واقع الأمر؛ فإن اتجاهات المتحدثين بعربي جوبا لا تنفي هذا البعد الأيديولوجي تماماً، لكنها تسلّم أيضاً بأن وجود عربي جوبا كلغة تواصل مشتركة قد عالج الكثير من الإشكاليات التي يمكن أن تنشأ من محاولة تحديد أي من اللغات المحلية الأخرى وفرضها كوسيط للتخاطب بين مختلف مكونات جنوب السودان، لأن ذلك قد يساهم في بروز ادعاءات سياسية جديدة تتعلق بمحاولة فرض لغة مجتمع معيّن كنوع من الهيمنة الاجتماعية الثقافية، وقد توافق الناس على استخدام الإنجليزية كلغة رسمية في دواوين الحكومة لتجاوز تلك الأزمة، وهي ذات البراغماتية العملية التي تجعل من «عربي جوبا» وسيط التخاطب اللغوي المشترك والوحيد بين المجموعات الثقافية اللغوية المتعددة بجنوب السودان.

لقد بدأت «عربي جوبا» كلغة في اكتساب المزيد من الخصائص المحلية، وباتت في طور التحول إلى لغة إفريقية تكاد تخلو من التأثيرات الثقافية العربية والإسلامية، وقد اتضح ذلك من خلال مشاركة مجموعة جنوب السودان للمسرح في مهرجان شكسبير بلندن في أعقاب الاستقلال، بعرض مسرحية «سمبلين» التي قام بترجمتها جوزيف ابوك من الإنجليزية إلى عربي جوبا باعتبارها واحدة من اللغات المحلية التي لم يكن هناك من خيار سواها؛ لأن شرط المشاركة هو تقديم العروض المشاركة في المهرجان بإحدى اللغات المحلية السائدة في البلد المشارك في فعاليات مهرجان (غلوب)، وقد استشعر جمهور المشاهدين وأعضاء المجموعة أن هذا العرض المسرحي يعبّر عن الانتماء الجنوب سوداني بشكل حقيقي[١].

يقول الدكتور عشاري أحمد خليل: «إن عربية الجنوب في أشكالها الهجين والخلاسية والعامية هي اللغة الأولى في جمهورية جنوب السودان من حيث عدد المتحدثين بها، ومن حيث تعدد مجالات استخدامها ووظائفها. إذ أصبحت حتى يومنا هذا- في العام ٢٠١٤م- اللغة المشتركة الرئيسة للتخاطب بين المجموعات العرقية اللغوية الجنوبية الخمسين ويزيد. وهي اللغة التي تستخدم، أكثر من أية لغة جنوبية أو إقليمية أو عالمية، كلغة ثانية متساكنة مع اللغة المحلية داخل حدود العرقية اللغوية الواحدة، وهي اللغة الأكثر سرياناً كلغة أمّ، أي كلغة أولى لأعداد متزايدة من الأطفال في مدن جنوب السودان»[٢].

ويرى عشاري أن التقويم الشعوري والأيديولوجي لعربي جوبا يمثل إشكالية جدلية نابعة من الظروف التاريخية التي تشكلت فيها كلغة هجينة، موضحاً أنه كان بالإمكان تأكيد الجذور الوطنية لعربية الجنوب ومحليتها والاعتراف بها كميراث ثقافي رمزي تفتقت عنه العبقرية اللسانية الجنوبية. وكان سائغاً أن يتم التركيز، عندئذ، على أن المجموعات الجنوبية المتباينة اللغات خلقت هذه اللغة الجديدة خلقاً في أوضاع انبتات ثقافي، صاغها العنف والقهر من قِبَل الأقلية المهيمنة، فجاءت شاهداً على تواصل فاعلية القدرات الخلاقة لتلك المجموعات[٣].

---

(١) Brown, R. L. (2018). How Juba Arabic helps bridge a factiuos South Sudan. Voice of Nation.

(٢) خليل، عبدالعزيز، إبراهيم، (٢٠١٤)، مسألة اللغة في جنوب السودان وفي بقايا السودان القديم، ص٢٨.

(٣) المرجع السابق ص٣٠.

إن ســـريان اللغات الهجين التدريجي يجعلها تحاول أن تتكيف مع محيط البيئة الثقافية اللغوية التي نشأت وتولدت فيها بدرجة كبيرة، في الاســـتجابة لمتطلبات المجموعة، ولا يزال الجدل مســـتمراً حول قدرة عربي جوبا على استيعاب التراث الشـــعبي المحلي المتمثل في الحكاية، الأســـطورة، النكتة والأغنية الشـــعبية، فقد انتشـــر مســـتوى من الغناء الحديث لغته الأساســـية عربي جوبـــا، حيث ظهرت أصوات فنية حققت انتشاراً كبيراً بسبب التقدير الكبير الذي يجدونه من جمهور المتلقين في جنوب الســـودان، ويعود الفضل في ذلك إلى تأسيس قسم خاص بالعربي البسيط في إذاعة جوبا منتصف ستينيات القرن الماضي، ومنه أصبحت عربي جوبا واحـــدة من اللغات المعتمدة للبث في الإذاعة المحلية بجوبا وفي الإذاعة القومية بأم درمان، وفي بقية المحطات الإذاعية المحلية في مدن الجنوب الرئيسية الأخرى مثل واو وملكال.

وقد ســـاهم ظهور الفرق والجماعات الفنية الحديثة أيضاً في انتشار عربي جوبا خلال تلك الفترة، مثل فرقة جاز الرجاف، والفنان يوسف فتاكي، وإميل عدلان، وحسين عبد النبي، وغيرهم كثيريـــن، ولاحقاً أفردت عدد من الإذاعات الخاصة بالكنائس مســـاحات مقدرة للبث باستخدام عربي جوبا كوســـيط لمخاطبة مستمعيها المنتشرين على امتداد جنوب السودان[1]، وقد مثلت فترة توقيع اتفاقية أديس أبابا للسلام واحدة من أكثر المراحل التي ازدهرت فيها «عربي جوبا»؛ نســـبةً لما هيأته من فرصـــة لتلاقي المجموعات الجنوبية المتباينة في داخل العاصمة.

أما بالنســـبة لبقية أجناس التراث الشعبي الأخرى، مثل النكتة والحكاية الشـــعبية والأغنيات التقليدية، فإنها وردت في ســـياق اللغات المحلية التي تخلقت فيها كبيئات طبيعيـــة، ويندر أن تتوفر نماذج لأعمـــال فولكورية قائمة علـــى هذه اللغة الجديدة التـــي وُجدت في ظروف محددة ومجالات اســـتخدام عامـــة كلغة تواصل مشـــتركة، علماً بأن المنتج الشـــعبي هو سمة خاصة بكل مجموعة ثقافية يميزهـــا عن بقية المجموعات الأخرى فـــي إطار التعدد، والأرجـــح هو أن أي محاولة للتعبير عن مضمون فولكلوري في التعاطي الشـــفاهي لعربي جوبا لا يعدو كونه محاولة لنقـــل النصوص من لغاتها وإعادة إنتاجها في قالب جديد، وذلك بغرض تقريب الصورة لذهنية الجمهور المتلقي.

وقـــد شـــاع هـــذا النمط مـــن توظيف التـــراث في الخطابات الشـــعبية للقادة السياسيين، وقد «ظل الخطاب الشعبي السياسي في جنوب السودان يكون مقبولاً للجمهور متعدد اللغات؛ فقـــط إذا عُبّر عنه بعربية الجنوب الهجين الخلاسية، إذ إن

الإنجليزية، والعربية الفصحى، واللغات المحلية، كانت تعانـــي دائماً من محدودية في هذا المجال، بحكم محدودية توزيعها المعرفي والاســـتخدامي بين المجموعات العرقية اللغوية الخمسين ويزيد.. واستقطبت هذه الخطب السياسية في بنيتهـــا العناصر الجوهرية للبعـــد الأدائي الدرامي في التراث الشـــعبي، وكانت تتفاعل فيها قدرات إبداعية تتوسل لحفز اســـتجابة الجمهور وقبوله لرسالة الخطبة السياسية بحكاية قصص، ونكات، وضرب أمثلة محلية»[2].

عربي جوبا.. تساؤلات حول المستقبل:

مـــن خلال اســـتعراض الوضـــع اللغوي فـــي جنوب الســـودان، وما تواضـــع عليه صانعو القرار والمشـــرعون في خصوص السياســـات اللغوية للدولة الجديدة، نرى أن هناك عدداً من التساؤلات التي تثور حول مستقبل (عربي جوبـــا)، مثل فرص صمودها كوســـيط تخاطب مشـــترك ووحيد، ومدى قدرتها على اكتســـاب المزيد من السمات والخصائص الجديدة التي تجعلها لغةً رسمية معترفاً بها.

لقد اتفقت العديد من الدراسات المتخصصة على أن المحاولات المبكرة التي أقدمت عليها الإرسالية الكاثوليكية فـــي مدينة واو، بإقليم بحر الغزال في العام ١٩٢٩م، لكتابة العربية بالحـــروف اللاتينية، وتوظيفها فـــي تعليم الكتاب المقدس للمؤمنين، كانت تمثـــل واحدة من الخطوات التي أقدمت عليها الســـلطات الإدارية فـــي محاولة التعامل مع العربية المبسطة، كجزء من الواقع الذي يجب الاستفادة منه

(١) Wani, V. K. (2014). Mass Media In Sudan, Expirience of the South. Juba: Universal printing company

(٢) المرجع السابق ص ٣٢.

وتوظيفه لصالح التعليم الكنسي، وقد جاءت تلك الخطوة بعد عام واحد على انعقاد مؤتمر الرجاف للغات، وقد تمت طباعة العديد من المواد التعليمية باستخدام العربية المبسطة كتابةً، وتمت طباعة العديد من كتب الترانيم والأعمال المسرحية، والتي كانت تُبث على إذاعة مجلس الكنائس السوداني بعربي جوبا. كما استطاع معهد اللغات الصيفي بجوبا أن يطور مناهج لتدريس وتعليم أساسيات عربي جوبا والعربية الفصحي باستخدام الحروف اللاتينية، كتجربة جديدة في ثمانينيات القرن المنصرم.

كانت جميع تلك الخطوات التي استخدمتها الإدارة الاستعمارية تهدف إلى معالجة مسألة اللغة في جنوب السودان في محتواها الاجتماعي والاقتصادي والثقافي، ولكنها لم تنجح في استئصال اللغة العربية نتيجةً لأن التطور التاريخي كان راجحاً لصالح اللغة العربية، مما دفع الإدارة الاستعمارية إلى نفض يدها من تلك السياسات في وقتٍ لاحق[1] .

هذا، وقد تم اعتماد عربي جوبا كواحدة من اللغات التي يمكن الاستعانة بها في تقديم العون القانوني من قِبَل إحدى المنظمات الأسترالية العاملة في هذا المجال، وقد أضافت عربي جوبا المكتوبة بالحروف اللاتينية إلى قائمة اللغات التي يتم التعامل بها في الإجراءات القانونية في موقعها الرسمي على الإنترنت إلى جانب لغة الدينكا والعربية الفصحى، كما قامت مجموعة من الناشطين على موقع التواصل الاجتماعي الشهير (فيس بوك) بإنشاء صفحة متخصصة باسم «عربي جوبا» منذ العام ٢٠١٠م، وهي صفحة تحتوي على مجموعة من الأشعار والنكات، لكن لا تزال هناك معضلة كبيرة تتمثل في الاتفاق على قواعد محددة لكتابة «عربي جوبا» بالأحرف اللاتينية، إذ تشير معظم تلك المحاولات المستمرة إلى غلبة الاجتهاد في ظل عدم التوصل للقواعد العامة حتى الآن[2].

إن الانتشار اللساني لعربي جوبا في مرحلة ما بعد الاستقلال يدحض العديد من الفرضيات التي كانت تتحدث عن أن استمرارها ونموها وتطورها مربوط بتأثيرات اللغة العربية بلهجتها العامية السودانية المعروفة، كما أشارت بعض الكتابات إلى أن ذلك التواصل محكوم بانتصار خصائص الفصحى على حساب عربي جوبا التي يتوقع أن تفقد فرادتها لصالح تبني وانتشار العربية الفصحى في جنوب السودان، وتلك فرضية تستبعد في الأساس الظروف التي نشأت فيها تلك اللغة وتساوقها مع اللغات المحلية السائدة في المنطقة الاستوائية، وكذلك استيعابها للعديد من المفردات المستعارة من بعض اللغات الأجنبية ولغات المجتمعات المحلية الأخرى في جنوب السودان، مع ملاحظة الأثر القوي للغة الباري؛ ما يؤكد أنها ستحظى بفرص أكبر في التطور المستقبلي، والذي سيبقي عليها كواحدة من اللغات الحية.

هناك مسألة أخرى بالغة الأهمية، تتطلب أن نضعها في اعتبارنا باستمرار، حول الدواعي غير المنظورة للكثيرين، والتي تؤكد الدور الوظيفي الذي تؤديه عربي جوبا في مرحلة ما بعد استقلال جنوب السودان، ومن أهمها دورها كلغة تواصل مشتركة حقيقية ووحيدة، تجمع بين جميع المكونات الاجتماعية والثقافية بجنوب السودان على مستوى العاصمة جوبا، إذا سلّمنا بأن اللغات المنتشرة في بحر الغزال وأعالي النيل يمكن أن نطلق عليها مجازاً اسم (عربي واو وملكال)، فإن هذا الدور الخفي الذي تؤديه عربي جوبا في جمع أشتات الجنوبيين، ولو بصورة رمزية، يمثل واحدة من العوامل (القليلة) الموحدة بين تلك المجموعات كافة، في ظل حالة الاحتقان السياسي، والتباعد الاجتماعي، والتسييس القبلي الذي يقدم جميع اللغات المحلية الأخرى في قالب قائم على موازنات السلطة السياسية والاقتصادية، وتلك معضلة ستستمر لوقت طويل، ويصعب تجاوزها في القريب العاجل بسبب ما تركته من تأثيرات وجروح عميقة في النسيج الاجتماعي وعملية البناء الوطني والتكامل القومي، وإلى أن يحين الوقت المناسب لمعالجة تلك الأزمات؛ ستظل جميع تلك الحوارات العميقة في حاجة ماسّة لعربي جوبا بوصفها وسيطاً للتخاطب، وكأداة من أدوات تحقيق ذلك التقارب ■

(١) إبراهيم، عبد الله، علي، (٢٠٠٠). الماركسية ومسألة اللغة في السودان. الخرطوم – دار عزة للنشر ، ص٥٦.

(٢) Miller, C. (2014). Juba Arabic as a written language. Journal of Pidgin and Creole Languages.